لاستقطاب جماهير الفلاحين وشدّها باستثارة مفاهيمها القبلية، فهنا كان الاستخدام سياسياً، ولم يطبع العائلات نفسها بطابعه[١٦]. وهذا لا يلغي بالطبع تأثرها به بدرجة او بأخرى، فكما قلنا في البداية، فإن القضاء على الاسس العشائرية ــ القبلية في التنظيم الاجتماعي، هو مسألة تتم بشكل تدريجي مع انتقال المجتمع من التشكيلة الاقطاعية إلى التشكيلة الرأسمالية. وتضع هوكستر ايضاً احتمال ان يكون لحروب قيس ــ يمن في منطقة القدس دور في طبع الحروب «النابلسية» بطابعها. وتستند على ذلك برؤية مدى تأثر «النواحي» الواقعة إلى الجنوب الشرقي والغربي من نابلس، والقروية من جبال القدس، مثل المشاريق ــ التي انتشرت فيها قضية قيس ــ يمن، وجماعين التي غاب عنها هذا الخط لوجود عائلتي القاسم والريّان ذات النفوذ فقط[١٧].

ومن الواضح ان الكثير من العائلات، خصوصاً طوقان وابوغوش، وهم ليسوا بيمن او قيس، ادّعوا انهم يمن عند قدومهم لمناطقهم (القرن السابع عشر)، واستطاعوا بذلك ان يبسطوا نفوذهم على العائلات الاخرى في مناطقهم، مما يثبت وجود اساس قيس ــ يمن كعامل صراع او تحالف حتى ذلك الوقت على الاقل، في ضمير الناس ومشاعرهم. وتذكر هوكستر حالة واحدة حصل فيها تحالف على اساس قيس يمن بين المناطق الشمالية والوسطى بين جرار وريّان (يمن) وبين ابوغوش، ثم بين سمحان (قيس) وبين القاسم (قيس)، وتؤكد ان لا مجال هنا للتعميم لقصر حالة التحالف هذه، ولعدم تكرارها، وانتقال بعض اطرافها من قسم لآخر مثل جرار والقاسم[١٨].

وكنتيجة، نستطيع الإجابة على التساؤل الاخير فنقول: ان الاساس الوحيد والمهم للتعارضات القائمة بين العائلات الاقطاعية في الفترات المختلفة كان التنافس القائم على مراكز النفوذ والسلطة، فالحرب الاولى (١٧٩٤ ــ ١٨٢٣) والحرب الاهلية الثانية (١٨٤١ ــ ١٨٥٨)، في جبل نابلس كانتا صراعاً محلياً بين مجموعات محلية على حكم جبل نابلس. «وهذه العائلات كلها، [كما يقول د. وجيه كوثراني]، هي جزء من 'جهاز' الدولة العثمانية، الذي يتحكّم فيه على الدوام 'صراع داخلي' يتمحور حول حدود الالتزام، ومدى اتساعه من حيث حجم الضريبة، ووزن النفوذ، والامتداد الجغرافي»[١٩]. وساعدت الأسس القبلية للتنظيم الاجتماعي القائم السائد آنذاك على إمكانية استغلال الجماهير الفلاحية من قبل العائلات الاقطاعية، لدعمها في حروبها مع العائلات الاخرى، على اساس اعتماد خط قيس ــ يمن في تحالفاتها المختلفة، وخصوصاً في الحرب الاهلية (١٨٤١ ــ ١٨٥٨) وفي حروب المنطقة الوسطى من فلسطين.

ولكنها لم تكن على الاطلاق الاساس الذي انطلقت منه هذه العائلات في تعارضها وصراعها مع العائلات الاخرى.

إذا، فقد كانت هناك طبقة اقطاعية فلسطينية موجودة على اساس الدور الموضوعي الذي تلعبه، بدون إدراكها لهذا الدور ومهامه بشكل متكامل بسبب وجود سلطة مركزية حاولت تحطيم نفوذ هذه الطبقة ووحدتها على مر القرون. وقد اختلفت العائلات المكوّنة لهذه الطبقة تبعاً لنوعية علاقتها بالسلطة العثمانية (عائلات نابلس والقدس). وما يفرضه